الفصل الخامس

الفقراء

محدثو الفقر

20

ليس كل الفقراء محبطين. بعض الفقراء الذين يعانون في الأحياء البائسة من المدن لا يشعرون بأي إحباط، بل إنهم يرتعدون؛ خوفًا من العيش خارج المحيط التعس الذي ألفوه.

حتى الفقراء الأفضل حالًا عندما يطول أمد فقرهم لا يفعلون شيئًا، ويشلّهم إحساسهم أن الأوضاع القائمة أشياء ثابتة يستحيل أن تتغيّر. يتطلب الأمر كارثة مروعة، مثل غزو خارجي أو وباء منتشر، لكي يتفهموا أن الأوضاع الدائمة يمكن أن يطولها التغيير.

عادة، ما يكون محدثو الفقر، الفقراء الذين لم يطل عهد فقرهم، هم الذين يشعرون بالإحباط؛ لأن ذكرى الأشياء التي فقدوها لا تزال حية في دمائهم. هؤلاء المحرومون هم الذين يسارعون إلى الالتحاق بأي حركة جماهيرية صاعدة. لقد كان محدثو الفقر المسؤولين عن نجاح الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر [*]. خلال «ثورة الملاك» التي سبق

(*) تغطي الثورة الإنجليزية المدة بين سنتي 1640م إلى 1660م من تاريخ إنجلترا. بدأت الثورة بالخلاف بين الملك تشارلز الأول والبرلمان، وتطور الخلاف إلى حربين أهليتين صعد خلالهما نجم أوليفر كرومول (1599 – 1658م) الذي كان يقود قوات البرمان، أدى انتصار كرومول إلى =

أن أشرنا إليها، قام الآلاف من مالكي الأراضي الزراعية بطرد فلاحيهم من الأراضي التي كانوا يزرعونها وتحويلها إلى مراعٍ. «تحوّل الفلاحون الأقوياء النشطون المتعلقون بالتربة التي كانوا يستمدون منها رزقهم إلى عمال بأجور أو متسولين... وازدحمت الشوارع بالمعدمين»[1]. كان هذا الحشد من المحرومين هم أفراد جيش كرومول الشعبي الجديد.

وفي ألمانيا وإيطاليا تحول محدثو الفقر المنحدرون من الطبقة الوسطى المنهارة إلى دعاة رئيسين للثورتين النازية والفاشية. وأولئك الذين يمكن أن يتحولوا إلى ثوريين في بريطانيا المعاصرة ليسوا من العمال، بل من موظفي الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين تأثروا بالتأميم. هذه الطبقة تحتفظ بذكريات حيّة عن ماضيها المتصف بالغنى والهيمنة، وليس من المحتمل أن تتأقلم مع الأوضاع التي تكبلها وتحرمها أي نفوذ سياسي[*].

= محاكمة تشارلز الأول وإعدامه، وتولى كرومول الحكم، وبوفاته سنة 1658م عادت الاضطرابات التي انتهت برجوع الملكية وتنصيب تشارلز الثاني ملكًا سنة 1660م (المترجم).

(1) Charles A. And Mary R. Beard, The Rise of American Civilization (New York: Macmillan Company, 1939) Pol. 1, P. 24

(*) لم تحدث ثورة في بريطانيا، ولكن الناخبين تحولوا من حزب العمال إلى حزب المحافظين في انتخابات سنة 1951م ولعلّ ما أشار إليه المؤلف كان له أثر في هذا التحوّل (المترجم).

كانت هناك، في الولايات المتحدة وفي الدول الأخرى، زيارات دورية منتظمة في أنواع جديدة من الفقراء، ولا شك في أن هذه الزيادات أسهمت في ظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها. حتى وقت قريب، كان محدثو الفقر ينحدرون من طبقة الملاّك، سواء في المدن أو الأرياف، إلا أنه مؤخرًا، ولأول مرة في التاريخ، تحول العمال العاديون إلى محدثي فقر.

عندما كان الذين يقومون بالأعمال اليدوية الشاقة يعيشون على حافة الكفاف، كانوا يعدّون أنفسهم ويعدّهم غيرهم، الفقراء «التقليديين». كانوا يعانون الفقر في أوقات الازدهار وأوقات الركود، ومن وجهة نظرهم لم يكن الكساد، مهما بلغت شدته، أمرًا غريبًا أو مزعجًا. إلا أنه مع ارتفاع مستوى المعيشة بين الناس أصبح للركود والبطالة معنى مختلف. يعدّ العامل في الدول الغربية البطالة أمرًا مهينًا للكرامة. ويعتقد العامل في هذه الدول أنه تعرض للافتقار والأذى؛ نتيجة أوضاع قائمة ظالمة يجد نفسه مستعدًا للاستماع إلى الذين ينادون بالإطاحة بها.

الفقراء فقرًا مدقعًا

21

إن حيـاة الفقراء الذيـن يعيشون على حافـة الجوع أبعد مـا تكـون عن الفـراغ. إن الصـراع اليومي المحمـوم في سبيل الحصـول على الطعام والمأوى يجعلهم بـلا دقيقة من الفراغ. أهـداف هؤلاء الفقـراء واضحة ومحـددة: كل وجبـة إنجاز؛ والنـوم بمعـدة ممتلئـة انتصـار؛ وأي وفر معجـزة. ما حاجة هؤلاء إلى أهداف عليـا تتجاوز الذات، تمنح حياتهم معناها؟ هـؤلاء الفقراء محصنون ضد الحـركات الجماهيرية. تصف إنجيلـكا بالا بانـوف تأثير الفقر المدقع علـى حماسة الثوريين الراديكاليـين الذيـن توافـدوا علـى موسكـو على إثـر الثورة البلشفيـة: «هنـا وجـدت رجـالًا ونسـاءً تخلّوا عـن كل المزايا المادية، وعن حياتهم، وعن سعادتهم، وعن مشاعرهم العائلية لتحقيـق أهدافهم المثالية، وجدتهم وقد باتوا ولا همّ لهم سوى الصراع مع البرد والجوع»[1].

لا تكـون لـدى النـاس، عندمـا يكدحون من الشـروق إلى الغروب لمجـرد البقاء على قيد الحيـاة، ظلامات، ولا يملكون

(1) Angelica Bala Banoff, My Life As A Rebel (New York: Harper & Brothers, 1938), p.204.

أي أحلام. كان من الأسباب التي أدت إلى عدم ثورة الجماهير في الصين الجهد الهائل الذي بذلته لتحيا حياة الكفاف. إن الصراع اليومي للبقاء على قيد الحياة «يحفز على الجمود، لا على التمرد»[1].

22

إن البؤس، في حد ذاته، لا يقود، تلقائيًا، إلى التذمّر. كما أن درجة التذمر غير مرتبطة بدرجة البؤس. يبلغ التذمر أعلى درجاته حين يكون البؤس محتملاً، أي حين تتحسن الأوضاع على نحو يسمح بالاعتقاد بإمكان تحسنها أكثر فأكثر. فوجئ دي توكيفيل خلال دراسة حالة المجتمع في فرنسا قبل الثورة، حين اكتشف أنه «لم يشهد أي مدة من المدد التي أعقبت ثورة 1788م رخاءً شاملاً كالذي شهدته مدة العشرين سنة التي سبقت قيام الثورة»[2].

وقاده هذا إلى الاستنتاج الآتي: «ازداد تذمر الفرنسيين مع ازدياد رخائهم»[3]. وفي كل من فرنسا وروسيا كان الفلاحون

(1) Edward A. Ross, The Changing Chinese (New York: Century company, 1911), p. 92

(2) Alexis De Tocqueville, On the State Of Society In France Before the Revolution of 1789) (London Cohn Murray, 1888, p. 149.

(3) ibid, p. 152.

المتعطشون إلى الأرض يملكون ثلث الأراضي الزراعية عند اندلاع الثورة، وقد حصلوا على معظمها خلال جيل أوجيلين قبل الثورة[1] ليس البؤس الفعلي، إذًا هو الذي يدفع إلى الثورة، بل طعم الأشياء الطيبة القادمة ليس من الممكن أن تقدم ثورة شعبية في روسيا، إلا إذا بدأ الناس يتذوقون طعم الحياة السعيدة. لن يواجه الحزب الشيوعي خطرًا إلا عندما تتحسن الأوضاع الاقتصادية لمجموع الناس، وعندما تخفّ وطأة القبضة الحديدية[*]. من المثير للانتباه أن اغتيال كيروف، صديق ستالين[**] المقرّب. حدث في ديسمبر من سنة 1834م، أي بعد أن أعلن ستالين نهاية ناجحة للخطة الخمسية الأولى، وبداية مرحلة جديدة من الرخاء.

يبدو أن درجة التذمّر تتناسب عكسيًا مع درجة البعد عن الهدف المنشود: كلمّا اقتربنا من الهدف، كلما زاد التذمّر،

---

(1) Lyford p. Edwards, the Natural History of Revolution (Chicago: University of Chicago press 1927) p.2.

(*) ما توقعه المؤلف حدث بالفعل في الاتحاد السوفيتي، ولعله طبقًا للتحليل نفسه، سيحدث في الصين (المترجم).

(**) كان جوزيف ستالين (1879 - 1952م) من قادة الحركة البلشفية في روسيا ،وتمكن بعد موت لينين من الاستئثار التام بالسلطة، وتحول النظام إلى ديكتاتورية فردية مطلقة وارتكب ستالين الكثير من المجازر التي يقدر عدد ضحاياها بالملايين (المترجم).

وكلّما ابتعدنا عنه كلما خف التذمّر. تصدق هذه الملاحظة على المحظوظين الذين اقتربوا من أرض الميعاد»، كما تصدق على المحرومين الذين أبعدوا عن هذه الأرض التي لا يزالون يرونها بأعينهم. وتصدق الملاحظة على أولئك الذين يوشكون أن يصبحوا أغنياء، وعلى محدثي الفقر، وعلى الأرقاء الجدد.

23

إن إحباطنا عندما نملك الكثير، ونريد المزيد يفوق إحباطنا عندما لا نملك شيئًا ونريد القليل. ونحن أقل تذمرًا حين نفقد أشياء كثيرة منا، حين لا نفقد إلا شيئًا واحدًا.

24

نحن نغامر في سبيل الحصول على الكماليات أكثر مما نغامر لكي نحصل على الضروريات. و كثيرًا ما يحدث أننا عندما نتخلّى عن الكماليات نجد أنفسنا، وقد فقدنا الرغبة في الضروريات.

25

هناك أمل يشجع على الثورة، وأمل يشجع على الصبر، وهذا هو الفرق بين الأمل المباشر والأمل البعيد.

تبشر الحركات الجماهيرية الصاعدة بالأمل المباشر. لا شيء يحث أتباع هذه الحركات على التحرك مثل الاعتقاد أن الأمل على وشك التحقق. كانت المسيحية عند ظهورها تبشّر بنهاية العالم الوشيكة وقدوم مملكة السماء. ولا يمكن تجاهل الدور الذي أدته الغنائم في حروب الإسلام. واليعاقبة في فرنسا وعدوا بحرية ومساواة يجيئان على الفور، بينما وعد البلاشفة الأوائل بالخبز والأرض. وعد هتلر أنصاره أن ينهي على الفور العبودية التي فرضتها معاهد فرساي، وأن يوجد عملًا وحراكًا للشعب كلّه. في وقت لاحق، عندما تصل الحركة إلى السلطة يبدأ التركيز على الهدف البعيد، على الحلم وعلى الرؤية. تنشغل الحركة التي وصلت إلى الحكم بالحفاظ على الوضع القائم، وتشجع الطاعة والصبر بعد أن كانت تدعو إلى الأعمال الفورية العفوية: «عندما نحلم بما لا نرى، فبوسعنا أن نصبر في انتظار تحقيقه»[1].

لكل حركة تصل إلى السلطة هدفها البعيد، مخدّرها الذي يكبح اندفاع الجموع ويدعوها إلى التأقلم مع واقعها. وهكذا نجد أن الستالينية تحولت إلى أفيون الجماهير، نفس التعبير الذي سبق للستالينية أن استخدمته في وصف الأديان.

(1) The Epistle of Daul the Apostle To the Romans 8: 25.

الفقراء الأحرار

26

الأرقـاء فقراء، إلا أنه حين يكون الـرق منتشرًا ومتجذّرًا لا يكـون هناك احتمال أن تقـوم حركة جماهيرية. إن المساواة المطلة بين الأرقاء، بالإضافة إلى الحياة الجماعية الحميمة في «قسم العبيـد»، تزيل أي شعور بالإحباط الفردي. وفي المجتمع الـذي تشيع فيه مؤسسة الرق لا تجـد مشاغبين، إلا من الذين استرقوا حديثًـا، أو من الأرقاء المحرّريـن، وفي الحالة الثانية نجد أن عبء الحرية هو سبب التذمّر.

إن الحريـة تزيـد الإحباط بقدر مـا تخفضـه. إن توافر حريـة الاختيار تضع اللوم كله على عاتـق الفرد، ولأن الحرية تساعـد على تكـرار المحاولة، فإنها تساعد علـى تكرار الفشل وما تبعه مـن إحباط. إلا أن الحرية تخفف من الإحباط، حين تفتح مجالات الحراك والعمل والتغيير والاحتجاج.

تصبح الحرية عبئًا على الشخص، حين يفتقر إلى المواهب التي تمكنه من تحقيق أي شيء. أي معنى للحرية عندما يكون الشخص عديم الفاعلية؟ يلجأ الناس إلى الحركة الجماهيرية؛ ليتحـرروا من ثقل المسؤوليـة الفردية، أو كما قـال شاب نازي

متحمّس «للتحرر من الحرّية»[1]. لم يكن من باب النفاق أن يعلن المنضمون إلى الحركة النازية أنهم أبرياء من جميع الجرائم التي ارتكبتها الحركة. كانوا يشعرون بالظلم والاضطهاد عندما يطلب منهم أحد أن يتحملوا المسؤولية الشخصية. ألم ينضموا، أساسًا، إلى الحركة النازية للتخلص من المسؤولية؟

إن أكثر البيئات صلاحية لنمو الحركات الجماهيرية هي المجتمعات التي تتمتع بقدر كبير من الحرية، ولكنها تفتقر إلى ما يزيل الإحباط. تجاوب فلاحو فرنسا مع نداء الثورة في القرن الثامن عشر؛ لأنهم بخلاف الفلاحين في ألمانيا والنمسا، لم يعودوا من رقيق الأرض، بل أصبحوا ملاكًا ومن المنطلق نفسه، يمكن القول: إن الثورة في روسيا لم تكن لتندلع لو لم يصبح الفلاحون الروس ملاكًا خلال جيل أو أكثر قبل قيام الثورة، الأمر الذي مكنهم من تذوق طعم الملكية الفردية.

27

لا تطلق الحركات الجماهيرية، بما فيها الحركات التي تنطلق باسم الحرية في مواجهة نظام مستبد، الحريات

(1) I. A. R. Wylie. «the Quest of our Lives, Readers Digest, May 1948, p.2.

الفردية في مرحلتها الأولى. ما دامت الحركة منهمكة في صراع مع النظام القائم، أو كانت بحاجة إلى الدفاع عن نفسها ضد أعداء داخليين أو خارجيين، فإن شغلها الشاغل هو الوحدة والتضحية بالنفس، الأمر الذي يعني حرمان الفرد من إرادته ومنطقه والمزايا التي يتمتع بها. وصف روبسبير (*) الحكومة الثورية بأنها «طغيان الحرية في مواجهة الاستبداد»[1].

والنقطة التي تهمنا هنا هي أن الحركات الجماهيرية عندما تنسى أو تؤجّل الحريات الفردية لا تصطدم مع رغبات أتباعها المتحمسين. إن المتطرفين كما يقول رينان: يخافون الحرية أكثر من الاضطهاد[2]. ما يبدو صحيحًا هو أن أتباع الحركات الصاعدة يشعرون شعورًا قويًّا بالحرّية برغم أنهم يعيشون ويتنفسون في جو صارم يفرض عليهم الالتزام المطلق بالقواعد والتعليمات. ويأتي هذا الشعور بالحرية من إفلاتهم مما يعكر صفو حياتهم الفردية من عقبات وأعباء

(*) كان روبسبير (1758 – 1794م) قائدًا دمويًا من قواد الثورة الفرنسية، ومات مغتالًا (المترجم).

(1) Crane Brintion, A Decade of Revolution, (New York: Harper And Brothers, 1934) p. 161.

(2) Ernest Renan, the Hibbert Lectures, 1880 (London: Williams And Norgate, 1898), Rreface.

وقنــوط: يصبح هذا الإفـلات، في نظرهم، إنقــاذًا وتطهيرًا. كمــا أن الشعور بحدوث تغيير عظيم يعطــي إحساسًا بالحرّية على الرغم من أن التغيير يتم في جو من القمع. عندما تجتاز الحركــة مرحلتها النشطة الأولى وتتحول إلى مؤسسة مستقرة يمكــن للحرية الفرديــة أن تعود. بقدر ما يقصــر أمد المرحلة النشطة بقدر ما يسود الانطباع بأن الحركة نفسها، لا نهايتها، هى التي أوجدت الحريات الفردية. يقوى هذا الانطباع ويتعزز بقدر قسوة الطغيان الذي أزاحته الحركة وحلت محله.

28

إن الذين يشكون فشل حياتهم وقبحها يتوقون إلى المساواة أكــثر من توقهــم إلى الحرّيــة. حتى عندما يضجــون في طلب الحرية، فإن مطلبهم الحقيقي هو حرية المساواة والتماثل. إن الشوق إلى المساواة، جزئيًا على الأقل، شوق إلى فقدان الهوية الشخصيــة: أن تصبح مجرد خيط في النسيج، مجرد خيط لا يختلــف عن بقية الخيوط[1]. لا يستطيع أحد، في هذه الحالة، أن يميّزنا عن غيرنا، أو أن يقارننا بغيرنا ويفضح عجزنا.

(1) Epictetus, Discourses, Book 1 chapter 2.

إن أكثر الناس صراخًا في سبيل الحرية كثيرًا ما يكونون أقل الناس سعادة في مجتمع حرّ. إن المحبطين، الذين تحاصرهم عيوبهم، يعزون فشلهم إلى القيود والمعوقات الخارجية إلا أنهم، في حقيقة الأمر، يتمنون أن يزول مناخ الحرية المتاحة للجميع ويودون إلغاء المناقشة الحرة، وما ينتج عنها من امتحان دائم للفرد في المجتمع المفتوح.

29

عندما توجد الحرية، بالفعل، تصبح المساواة مطلب الجماهير. وعندما توجد المساواة، بالفعل، تصبح الحرّية مطلب أقلية صغيرة. إن المساواة بلا حرية تخلق نظامًا اجتماعيًا أكثر استقرارًا من الحرية بلا مساواة.

الفقراء المبدعون

30

عندما يقترن الفقر بالإبداع فإنه يكون، عادة، خاليًا من الإحباط، وهذه الظاهرة تنطبق على الحرفي الفقير الماهر في حرفته، وعلى الكاتب الفقير، وعلى الفنان والعالم الفقيرين في ذروة إبداعهما. لا شيء يعزّز ثقتنا بالنفس، ويساعدنا على العيش معها، كالقدرة المستمرة على الإبداع: أن نرى الأشياء

تنمو وتكبر بين أيدينا يومًا بعد يوم. وليس من المستبعد أن يكون اختفاء الحرف اليدوية في الأوقات المعاصرة سببًا في تزايد الإحباط وفي انجذاب الفرد إلى الحركات الجماهيرية.

مما يثير الانتباه أن غياب القدرة الإبداعية لدى الفرد مؤشر على نزعة قوية تدفعه إلى الالتحاق بالحركات الجماهيرية، وهنا نرى بوضوح العلاقة بين الرغبة في الإفلات من الذات المحبطة والاستجابة للحركات الجماهيرية.

إن الكُتاب والفنانين والعلماء الذين يشعرون بالإحباط، بسبب نضوب قدراتهم الإبداعية الذاتية، ينضمّون، آجلًا أو عاجلًا، إلى صفوف الوطنيين المتطرفين، والعنصريين، أو معتنقي القضايا المقدّسة. وربما كانت الظاهرة نفسها تنطبق على العاجزين جنسيًا.

الفقراء المترابطون

31

إن الفقراء الذين ينتمون إلى مجموعة مترابطة، سواء كانت قبيلة أو عائلة أو فئة عرقية أو دينية، لا يكادون يشعرون بالإحباط، ومن ثم لا يحسون برغبة في الانضمام إلى حركة جماهيرية. والفقير الذي ينتمي إلى مجموعة لا يحكم على نفسه بالفشل، ولا يعدّ نفسه مسؤولًا بالكامل عن المعوقات التي

تعترض مجرى حياته، الأمر الذي يجعله بمنأى عن الإحساس بالعجز. مثل هذا الشخص أقل استجابة للنداءات الثورية من الشخص المستقل تمامًا. لا بدّ أن تكون درجة البؤس والمعاناة مرتفعة جدًا؛ لتدفع الفقير المنتمي إلى مجموعة إلى الثورة. إن سبب الثورة في المجتمع الديكتاتوري عادة ما تكون تفكك الديكتاتورية التي تجبر الجميع على البقاء في مجموعة واحدة، لا النقمة على الطغيان ولا الإحساس بالألم.

من المحتمل أن روابط الأسرة القويّة في الصين كانت السبب الذي أبقى جماهير الصين، عبر عصور طويلة محصنة ضد الحركات الجماهيرية. إن الأوربي «الذي يموت في سبيل وطنه» يتصرّف على نحو لا يفهمه الصيني الذي ينظر إلى المسألة من زاوية مختلفة: هذا الموت في سبيل الوطن لا علاقة له بأسرته، ولا تستفيد منه، بل على العكس، تفقد من خلاله عضوًا من أعضائها. ومن الناحية الأخرى فالصيني «يتقبَّل بسرور واعتزاز أن يموت عندما تستفيد أسرته من المبلغ الذي يدفع لها مقابل أن يعدم فرد من أفرادها بدلًا من مجرم محكوم عليه بالإعدام»[1].

(1) Arthur J. Habbard, the Fate of Empires (New York: Longmans, Green, & Company, 1913), p. 170.

من الواضح، والحالة هذه ، أن على الحركات الجماهيرية الصاعدة أن تلجأ إلى تحطيم كل الروابط بين الجماعات إذا أرادت أن يزداد أتباعها. إن المرشح الأمثل للانضواء تحت جناح الحركة هو الفرد الذي يقف وحيدًا من دون جماعة متماسكة يندمج فيها وتنصهر خلالها ذاته على نحو يجعله يعمى عما يسود ظروفه الشخصية من نقص وقبح وخواء. عندما تجد الحركات الجماهيرية روابط الأسرة والقبيلة والوطن، وما إليها، مفككة متآكلة، فإنها تسارع إلى جني الحصاد. أما عندما تجد هذه الروابط قوية متماسكة فإنها تلجأ، أولًا: إلى تحطيمها وبعثرتها. ومن الناحية الأخرى، عندما نلاحظ أن الحركة البلشفية في روسيا تدعو إلى تعزيز روابط العائلة وتشجيع التماسك القومي والعرقي والديني، فمعنى هذا أن الحركة اجتازت مرحلتها الديناميكية الأولى، وتحوّلت إلى مؤسسة لها نمطها وأسلوبها لا يهمها شيء قدر ما يهمّها أن تحافظ على ما أنجزته. أما خارج روسيا، فنلاحظ أن الشيوعية التي ما زالت في بداية صعودها تعمل كل ما بوسعها لتفكيك عرى العائلة والروابط القومية والعرقية والدينية.

32

إن موقف الحركات الجماهيرية الصاعدة من الأسرة جدير بالاهتمام والتأمل. أبدت هذه الحركات كلها في

مراحلها الأولى عداء تجاه الأسرة، وقامت بكل ما تستطيع القيام به لتفكيكها(*). وفي هذا السبيل، لجأت إلى إضعاف السلطة الأبوية وإلى تسهيل الطلاق، وإلى تحمل المسؤولية عن إطعام الأطفال وتغذيتهم وتسليتهم وإلى تشجيع العلاقات غير المشروعة بين الجنسين.

وبالإضافة إلى هذا، أسهمت المباني المزدحمة وعمليات النفي والاعتقال والتخويف في إضعاف تأثير الأسرة. ومع ذلك فنحن نلاحظ أن أيًّا من الحركات الجماهيرية المعاصرة لم تلجأ إلى إدانة الأسرة، كما فعلت المسيحية في بدايتها، وقد عبّر المسيح عن هذا الموقف بصراحة متناهية: «لقد جئت لأحرّض الرجل على أبيه، والابنة على أمها، وزوجة الابن على أم زوجها. سيكون أعداء الرجل من داخل منزله. والذي يحب أباه أكثر مما يحبني لن يكون جديرًا بي، والذي يحب ابنه أو

(*) عبدالله ثابت كاتب سعودي استقطبته جماعة دينية متطرفة في صباه ومراهقته، ثم خرج منها وروى تجربته في كتاب مثير. يقول عبدالله: «كم كنت أكره عائلتي وبيتي الذي يعج بالموبقات والمعاصي، كما كان مشرفو المخيّم يصفون أمثاله من البيوت، لقد كان مملوءًا بالفساد من تلفاز وصور وأصوات الأغاني وغيرها» ثم يقول: إنه خاصم أهله جميعًا وترك البيت والدراسة وكل شيء «لأعيش بإحدى الغرف التي يعيش فيها أحدهم. لقد كان بالنسبة لهم فرصة مناسبة لضمّي لهم إلى درجة يستحيل معها تركي لهم» عبدالله ثابت، الإرهابي 20، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2006م. ص ص 84 – 85 (المترجم).

ابنتــه أكثر مني لن يكون جديــرًا بي[1]». وعندما قيل للمسيح: إن أمه وإخوانه ينتظرونه في الشارع للحديث معه قال: «من هي أميّ؟ من هم إخواني؟» ثم أشار بيده إلى حوارييه وقال: «انظروا إلى أمــي وإخواني»[2]. وعندمــا استأذنه أحد حوارييه ليذهب لدفن أبيه، قال: «اتبعني. ودع الموتى يدفنون موتاهم»[3]. يبدو أن المسيــح كان يشعر بالصراعات المروعة التي ستحدث داخل العائلــة نتيجة إصــرار حركته على التبشــير وكراهية أعدائها بتطــرف: «وسوف يقدّم الأخ أخاه للمــوت، وسيثور الأبناء على آبائهم ويسوقونهــم إلى الموت»[4] إنه حقًا أمر غريب، وإن كان صحيحًا أن نجد الذي يدعو إلى الحب يدعو إلى كره الأم والأب والأخــت والزوجة والأولاد[*] لقد هاجم أتبــاع كونفشيوس[**] الحكيــم الصيني موتى زو الذي دعــا إلى حب الجميع، قائلين:

(1) Matthew 10: 35- 37.
(2) ibid, 12: 47- 49.
(3) ibid, 8: 22.
(4) ibid, 10: 21.

(*) كل مــا نقــد المؤلف عــن المسيح نابع مــن التصوّر المسيحــي الذي لا يمت بصلــة إلى التصــور الإسلامي عن سيدنا عيسى عليــه السلام، وإن كان لا يضيرنــا أن نذكّر بــه أولئك الذين يتهمون الإسلام بأنه دين يحث على الكراهية (المترجم).

(**) فيلســوف صيني شهير عاش بين سنتــي 551 و479 ق. م، وكانت تعاليمه تحث على الترابط العائلي والاجتماعي (المترجم).

إن هذا الحب الجماعي سوف يؤدّي إلى إضعاف الأسرة وتفكك المجتمع[1]. إن المبشّر الذي يجيء ويقول: «اتبعني»، يعمل، في حقيقة الأمر، على تفكيك الأسرة، وإن كان لا يشعر بنتائج عمله ولا يحس بأي عداء نحو الأسرة، ولا توجد لديه نية تحطمها. لقد قيل عندما كان القديس برنارد[*] يعظ: إن تأثيره كان من القوة «بحيث إن الأمهات أخفين أولادهن منه، وأخفت الزوجات أزواجهن؛ حتى لا يبعدهم عن الأسرة. لقد حطم عددًا كبيرًا من الأسر، حتى إن الزوجات المهجورات اضطررن إلى إنشاء دير للعيش فيه»[2].

يمكن للمرء أن يتوقع أن تفكك عرى الأسرة، مهما كان سببه، يساعد على نشوء روح جماعية، ويخلق حافزًا للاستجابة إلى نداء الحركات الثورية.

أدّى غزو اليابان الصين، بلا شك ، إلى هدم روابط الأسرة الصينية، وساعد على نشوء الاستجابة للنداءات القومية والشيوعية. أمّا في العالم الصناعي، فقد تفككت

---

(1) Kenneth Scot Latourette, the Chinese, their History And Culture (New York: Macmillan Company, 1946) Vol. 1, p. 79.

(*) عاش بين سنتي 923 – 1009م (المترجم).

(2) Brooks Adams, the Law of Civilization And Decay (New York: Alfred A. Kno pf, inc, 1943), p. 142.

عـرى الأسـرة بسبـب العوامـل الاقتصادية. مـن ناحية، أدى استقـلال المـرأة عن زوجهـا إلى تسهيل الطـلاق. ومن ناحية ثانيـة، أدّى استقلال الأبناء عن آبائهـم إلى إضعاف السلطة الأبويـة، وساعد على تفكيك الأسرة في وقت مبكر. ومن ناحية ثالثـة، أدى النزوح الكبير من الأريـاف والقرى إلى الحواضر الصناعيـة الكـبرى إلى إضعـاف الروابط العائليـة. كل هذه العوامـل شاركت، عبر إضعـاف الأسرة، في ظهـور الحركات الجماهيرية في العصور الحديثة.

إن مـا قـام به هتلر مـن تهجير جنـوني لشعـوب بأكملها خلال الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى ما قام به من إبادة عنصرية، أدّى، بلا شك، إلى اضطراب هائل مسَّ ملايين الأسر عبر جزء كبير من أوروبا. كمـا أن الهجمات الجوية الأمريكية على ألمانيا، وطرد تسعة ملايين ألماني من شرق أوروبا وجنوبها، والبطء في الإفراج عن سجناء الحرب الألمان عوامل تسببت في دمار داخل ألمانيا، كالدمار الذي نشرته ألمانيا، بقيادة هتلر، في أوروبا. من الصعـب على المرء أن يرى كيف يمكن لقارة تتناثر أسرهـا في كل مكان أن تخلـد إلى نمط اجتماعي مستقر، حتى في ظل الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية(*).

(*) استطاعت الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية أن تحول دون وقوع القلاقل الاجتماعية التي توقعها المؤلف في أوروبا (المترجم).

33

لا ينشأ التململ الذي تشهده البلاد المتخلفة عندما تتّصل بالحضارة الغربية من النقمة على الغربيين الذين يهيمنون على مقدّراتها ويستغلونها بقدر ما يعود إلى تهاوي التضامن القبلي وتآكل التضامن الاجتماعي.

إن نموذج تطوير الذات الذي تطرحه الحضارة الغربية أمام الشعوب المتخلفة يأتي ومعه وباء الإحباط الفردي. كل ما يجلبه الغرب من مزايا لا يعادل شعور الطمأنينة الذي كان الفرد يشعر به، وهو في أحضان بيئة مترابطة. حتى عندما يحصل المواطن المحلّي الذي يقلد الغرب على ثروة، أو يتقن مهنة محترمة، فإنه يظلُّ شقيًا، يظلّ يشعر بالغربة واليتم. والحركات القومية في البلاد المستعمرة هي، إلى حد ما، محاولة لاستعادة الوجود الجماعي الذي سبق الاستعمار وللإفلات من الفردية الغربية.

حاولت الدول الغربية الاستعمارية أن تقدّم للسكان المحليين هدية الحرّية الفردية وما يتبعها من استقلال فردي، وحاولت تعليمهم الاعتماد على الذات، إلا أن المحصلة النهائية كانت شعور الفرد بالعزلة. ما حدث هو أن الفرد قُطع، وهو لم

يـزل غير ناضج وغـير مستعد، من وجـوده الجماعي المترابط وطلب منه أن يمارس ما وصفه خوميكاوف «بحرية العجز».[1] إن الرغبـة المحمومـة في الذوبـان في الجماهير التـي تشهدها الدول الغربية، كما تشهدها مستعمراتها هي تعبير عن محاولة يائسـة للإفلات مـن وجود فردي بلا فاعليـة وبلا معنى. ومن هنـا فلا نستبعد أن الحركات القوميـة في آسيا، وبلا تأثير من روسيا، ستقود لا إلى حكم ديمقراطي، بل إلى الديكتاتورية.[*]

يجب على الدولة الاستعمارية أن تنمّي الترابط الاجتماعي وروح المسـاواة والإخاء بـين السكان المحليين. بقـدر ما يذوب الفرد، ويذيب ذاتـه في جماعة متماسكة بقدر ما يخف شعوره بالإحبـاط الفردي، ويمكن إيقاف نزعاته الثورية قبل أن تبدأ. إن سياسة فرِّق تسـدْ سياسة فاشلة، عندما تستهدف القضاء على كل الروابط بين أفراد الشعب المستعمر. إن تفكيك مجتمع القرية، أو مجتمع القبيلة، أو مجتمع الدولة، وتحويله إلى أفراد مستقلـين لا يقضي على روح التمرد ضـد المستعمر. إن القرية الفاعلة، حقًا، هي التي تشجع قيام مجموعات مترابطة، عرقية ودينية واقتصادية، ثم إذكاء المنافسة والصراع فيما بينها.

---

(1) Quoted By Nicolas Zernov, three Russian Prophets (Toronto: Macmillan Company, 1944), p. 63.

(*) ما توقعه المؤلف حدث بالفعل. (المترجم).

حتى عندما نفترض وجود أحسن النوايا لدى الدولة الاستعمارية، عندما نفترض أن هدفها الوحيد هو نشر الرخاء والتقدم بين الشعوب المتخلفة، فإن على هذه الدولة تشجيع الروابط الاجتماعية. وهي تحسن صنعًا إذا لم تركّز على تطوير الفرد ووجّهت جهودها الإصلاحية التطويرية عبر قنوات القبيلة والمجتمع على نحو يؤدي إلى تطوير هاتين المؤسستين. إن التحديث الناجح في شعب متخلّف لا يمكن أن يتم إلا عبر إطار قويّ من العمل الموحّد. إن تطور اليابان المذهل لم يكن ليتم لولا المحيط المشحون بالعمل الجماعي والشعور بالانتماء القويّ إلى الجماعة.

تتمثل ميزة روسيا السوفيتية كقوة استعمارية، بالإضافة إلى تحرّرها من العنصرية العرقية، في كونها تقدّم نموذجًا حيًّا للعمل الموحّد. عن طريق هذا النموذج تستطيع روسيا السوفيتية أن تزيل عمدًا كل الروابط الجماعية دون الخشية من ظهور ما يعقب زوالها من نقمة فردية وتمرّد. لا يُترك الفرد السوفيتي بمفرده يكافح في بيئة غريبة، بل على العكس، يجد نفسه واحدًا من مجموعة متماسكة أشد ترابطًا من العشيرة أو القبيلة التي كان ينتمي إليها.

إن تشجيع الترابط الاجتماعي كوسيلة لمنع التمرد في المستعمرات يمكن أن يستخدم في مجال آخر هو منع الاضطرابات العمالية داخل البلاد الصناعية الاستعمارية.

إن ربّ العمل الذي يودّ إبقاء عماله منهمكين في العمل، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من جهودهم لن يحقق هدفه بإثارة الفرقة بينهم وتحريض العامل على العامل. إن مصلحته تتطلب أن يشعر العمال أنهم جزء من مجموعة، وأن هذه المجموعة تشمل رب العمل نفسه. إن الشعور العميق بالتضامن، سواء كان عرقيًا أو قوميًا أو دينيًا، هو خير ضمانة ضد الاضطرابات العمّالية.

وحتى عندما يكون التضامن ذا طبيعة لا تسمح بإدخال رب العمل في دائرته، فإنه يقود إلى تعزيز الشعور بالرضا بين العمّال وزيادة فاعليتهم. إن التجربة تدلّ على أن الإنتاج يبلغ أعلى مستوياته، حين يشعر العمال أنهم أعضاء في فريق واحد، ويتصرفون على هذا الأساس، وأي سياسة تستهدف تفكيك الفريق تؤدّي إلى نتائج وخيمة. إن ضرر الحوافز والمزايا المادية التي تقدم على أساس فردي أكثر من نفعها. الحوافز الجماعية وحدها التي تقدم المزايا المادية على أساس أداء الفريق بأكمله، بمن فيهم المراقب الذي يمثل رب العمل، هي التي تؤدي إلى رفع الإنتاجية وزيادة الشعور بالرضا بين العمّال[1].

(1) Peter F. Drucker, «the way to Industrial Peace», Hapere Magazine, Nov. 1946 p. 392.

34

لا تستميل الحركة الجماهيرية الصاعدة الأتباع وتحتفظ بولائهم اعتمادًا على عقيدتها أو وعودها، ولكن لأنها تتحوّل إلى ملجأ يأوي إليه الأفراد الهاربين من مشاعر القلق والخواء والضياع. وهي لا تعالج المحبطين المتذمرين بإعطائهم حقيقة مطلقة، أو بالقضاء على الصعوبات والظلامات التي جعلت حياتهم بائسة، ولكن بتحريرهم من نفوسهم الفاشلة وضمهم إلى مجموعة سعيدة شديدة الترابط.

من الواضح، إذًا، أنه لكي تنجح الحركة الجماهيرية، فلا بد لها من تطوير تنظيم جماعي متماسك قادر على اجتذاب القادمين وصهرهم، ليس من المجدي عند تحليل حركة جماهيرية صاعدة أن تفحص عقيدتها، أو أن تتأكد من صدق وعودها: العامل الحاسم هو تنظيمها الجماعي الذي يستطيع صهر المحبطين فيه صهرًا كاملًا. وعندما تتنافس عدة عقائد على ولاء الجماهير، فإن العقيدة التي ستنتصر هي العقيدة التي تتقن بناء الإطار الجماعي. وإذا عدنا إلى العصر اليوناني/ الروماني، فإننا سنجد أن المسيحية كانت وحدها، بين كل الأديان والفلسفات التي ظهرت، القادرة على إيجاد تنظيم جماعي. لم يمتلك أي من منافس الكنيسة

تنظيمها القوي المتماسك، ولم يتمكن أحد غيرها من منح الأتباع الشعور بالانتماء إلى مجتمع موحّد مترابط»[1]. تمكنت الحركة البلشفية من التغلب على منافسيها من الحركات الماركسية، بفضل تنظيمها الجماعي المحكم. كما أن النازية استطاعت التغلب على كل الحركات الشعبية التي عاصرتها في ألمانيا في العشرينيات؛ لأن هتلر أدرك، في وقت مبكّر، أنه لا يمكن أن تنجح حركة جماهيرية صاعدة من دون تنظيم جماعي فاعل. أدرك هتلر مدى شوق المحبطين إلى «الانتماء»، الذوبان في كيان جماعي موحّد.

35

إن البيئة المناسبة لظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها هي البيئة التي عرفت في الماضي تنظيمًا جماعيًا تخلخل، لسبب أو لآخر. كانت الحقبة التي شهدت ظهور المسيحية وانتشارها حقبة «انتزع فيها كثير من الناس من جذورهم... واندمجت المدن/ الدول المتماسكة في أمبراطورية شاسعة واحدة.. وتعرضت الروابط السياسية والاجتماعية القديمة للضعف أو الانهيار»[2].

(1) Kenneth scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper And Brothers, 1937), vol 1, p. 164.

(2) ibid, p. 23.

حققت المسيحية أعظم إنجازاتها في المدن الكبرى «حيث عاش الآلاف المقتلعون من جذورهم، من عبيد وأحرار وتجَّار، بعد أن غادروا بيئاتهم التقليدية، مضطرين أو متطوعين»[1]. أمّا في الريف، حيث ظلت الروابط الجماعية قوية، فإن الدين الجديد لم يتمكن من التغلغل. كان سكان القرى والمزارعون أكثر الناس تعلقًا بمعتقداتهم القديمة[*]. وهناك مثل مشابه يمكن أن نلاحظه في صعود الحركات القومية والاشتراكية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر: «ساعدت حركة السكان المستمرة، وما زامنها من زحف نحو المدن، خلال تلك العقود على إيجاد عدد هائل من الأشخاص المقتلعين من تربتهم التقليدية وولاءاتهم المحلية. أصبح هؤلاء، مدفوعين بمتاعبهم الاقتصادية ومشكلاتهم النفسية، ضحية للادعاءات الغوغائية، سواء كانت اشتراكية أو قومية، أو الاثنين معًا[2].

يبدو أن القاعدة هي أنه بمجرّد أن يضعف نمط من التنظيم الجماعي تصبح الظروف مواتية لصعود حركة

---

(1) Ibid, p. 163.

(*) يذهب المؤلف إلى أن كلمة Pagan الإنجليزية، التي تعني الوثني مشتقة من كلمة Pagani الرومانية، التي تعني القروي، وكلمة Heathen التي تعني الكافر، مشتقة من الكلمة الرومانية التي تعني الفلاح (المترجم).

(2) Carlton J. H. Hayes, A Generation of Materialism (New York: Harper And Brothers 1941) p. 254.

جماهيريـة ونجاحها في إيجـاد تنظيم جماعي أشـد تماسكًا وقوة من التنظيم المنهار. وعندما تخفف كنيسة ما من قبضتها يصبح من المتوقع نشـوء حركات دينية جديدة. يلاحظ جورج هـ. ويلز أن حركة الإصلاح البروتستانتية لم تعترض على قوة الكنيسـة، ولكن علـى ضعفها. لم تكن الحـركات الموجهة ضد الكنيسة، سواء من داخلها أو خارجها، تستهدف الخلاص من السلطـة الدينية، بقدر ما كانت تتـوق إلى سيطرة دينية أقوى وأوسع نطاقًا»[1]. وعندما يضعف تأثير الدين بسبب الخلافات داخله، فإنه من المتوقع أن تكون الحركات الصاعدة اشتراكية أو قوميـة أو عرقية. إن الثورة الفرنسية، التي شكلت في الوقت نفسـه حركـة قومية، جاءت رد فعـل، لا على طغيـان الكنيسة الكاثوليكية والنظام القـديم، بل على ضعف هاتين المؤسستين وانعدام فاعليتهما. عندما يثـور الناس في مجتمع ديكتاتوري، فإنهم لا يثورون على ظلم النظام، بل على ضعفه.

عندمـا يكـون الترابـط قويًـا يصعـب علـى الحركـة الجماهيريـة أن تجد مكانًا. كانـت روح التضامن بين اليهود، سـواءً في فلسطين أو خارجها، سببًا من أسباب فشل المسيحية

(1) H.G. Wells, the outling of History (New York: Macmillan Company, 1922) p. 719.

في الوصـول إليهـم. أدى تحطيـم الهيكل إلى تقويـة الروابط بينهـم، إذ أصبح كل معبد محلّي والعابـدون فيه محط الولاء الـذي كان يتجه في السابـق إلى الهيكل. في وقت لاحق، عندما تمكنت المسيحية من عزل اليهود في أحياء منفصلة (الجيتو)، أعطـت تضامنهم دفعـة قويـة وأسهمت، عن غـير قصد، في إبقاء الديانة اليهودية حيّة عبر العصور. وعندما جاءت حركة التنويـر(*) في أوروبا هزت معتقـدات اليهود التقليدية بقدر ما هـزَّت جدران (الجيتو). فجـأة، لأول مرة منـذ عهود طويلة، وجـد اليهودي نفسـه يعيش بمفرده ويحسـ بالوحدة الشديدة في عالم معادٍ. لم يكـن أمامه كيان جماعي يستطيع أن يندمج معه ويذيب فيه ذاته. تحولت المعابد إلى مؤسسات متهاوية بلا حياة، وحالت تقاليد ألفي سنة بينه وبين الاندماج في الكيانات المسيحية الجماعية. هكذا أصبح اليهودي المعاصر أكثر الناس وحـدة وعزلة، ومن ثم أشدهم إحباطًـا. لا نستغرب، والحالة هـذه، إذا وجـدت الحـركات الجماهيريـة الصاعـدة أتباعًا كثيريـن من اليهـود. ولا نستغرب عندما تـرى اليهودي يجوب الآفـاق؛ بحثًا عما يخفف إحباطه عبر التجـارة أو الهجرة، أو

(*) يقصـد «بالتنويـر» عـادة، ما شهدتـه أوروبا في القـرن السابع عشـر والثامن عشرمـن ثورات فكريـة ناقشت الموروث واعتمـدت المنطق أساسًـا لها، وطال تأثيرها الأديان والفلسفة والأدب والسياسة (المترجم).

عندما نراه منغمسًا بكليته في جهود خارقة لكي يبرهن، عبر الإنجازات المادية أو الأعمال الإبداعية، عن قدراته الفردية. لم تبقَ سوى جماعة صغيرة واحدة يستطيع أن يوجدها بنفسه، هي الأسرة، وكان تعلقه بها شديدًا. إلا أن هتلر قضى على هذه الجماعة، في أوروبا على أي حال، عن طريق مراكز الاعتقال وحمامات الغاز، مما جعل اليهودي الأوروبي المرشح المثالي للانضمام إلى حركة جماهيرية. وفي هذه الظروف، في أحلك ساعاته سوادًا، جاءت الحركة الصهيونية مرحّبة بدمجه في كيانها الجماعي وإنقاذه من الشعور بالعزلة. تحولت إسرائيل، في نظر الصهاينة، إلى ملجأ من نوع جديد: أصبحت الوطن والعائلة، والمعبد ومرتادي المعبد، والأمة والحزب الثوري، كل هذا في وقت واحد.

إن تاريخ ألمانيا الحديث يزودنا بمثال مهم عن العلاقة بين الرابطة الجماعية القوية والاستجابة للحركات الجماهيرية. لم يكن هناك أي احتمال لقيام حركة ثورية حقيقية في ألمانيا القيصرية. كان الألمان راضين عن السلطة المركزية التي مثلها النظام القيصري، ولم يتخلخل حبهم للنظام حتى بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. لم تكن ثورة 1918م، ثورة حقيقية، بل مجرد حركة على السطح لم تتمتع بأي دعم شعبي. إلا أن

جمهوريـة وايمـار(*) التي تلت الثـورة لم تجلب لمعظـم الألمان سـوى الاستياء والإحباط. كانـوا متعودين علـى الأوامر التي تأتي مـن أعلى، وعلى احترام السلطـة، ولم يجدوا في النظام الديمقراطي سوى التسيب والفوضى. صدموا عندما اكتشفوا أن عليهـم المساهمة في الحكومة واختيـار الحزب، وعليهم أن يصـدروا أحكامهم في الشـؤون السياسيـة»[1] كانوا يتطلعون إلى نظام جماعي مركـزي شمولي ذي رأس واحد يغدق نظام القيصر حزمًا، وجاء «الرايخ» الثالث مستجيبًا لتطلعاتهم. لم يكن النظام النازي بعد أن وطد أركانه في خطر من ثورة شعبية: ما دامت القيادة النازية مستعدة لاتخاذ القرارات كلها وتحمل المسؤوليـات كلهـا. لم يكن هناك أي مجـال لاستياء شعبي. لو أن النظـام النازي خفف من وطأته لـكان هناك خطر حقيقي عليـه. ما قاله دي توكيفيل عـن الحكومة المستبدة ينطبق على كل الأنظمـة الشموليـة: تصل هذه الأنظمـة إلى نقطة الخطر حين تبدأ في الإصلاح وتبدي نزعات ليبرالية[2].

(*) أقامـت ثورة 1918م نظامًا برلمانيًا ديمقراطيًا، واستمد النظام اسمه من اسم المدينة التي وضع فيها الدستور (المترجم).

(1) Theodore A bel, why Hitler Came Into Power (New York: Prentice- Hall, 1938) p. 150.

(2) Alexis de Tocquville, op. cit, p. 152.

والمثال الأخير الذي يؤكد نظريتنا أن الكيانات المترابطة محصنة ضد الحركات الجماهيرية، وأن تهاويها يوجد البيئة المثالية لهذه الحركات هو العلاقة بين الجيش والحركات الجماهيرية. لا تكاد توجد حالة واحدة نجد فيها جيشًا متماسكًا يولّد حركة دينية أو ثورية أو قومية. ومن الناحية الأخرى، فالجيش المفكك، سواء نتيجة قرار حكومي بتسريحه، أو لفرار الجنود نتيجة الإحباط، يشكل بيئة مثالية لمثل هذه الحركات. إن الرجل المسرّح لتوّه من الجيش مرشح مثالي للحركات الثورية(*) ولهذا نجد الجنود المسرّحين من أوائل الذين انضموا إلى الحركات الجماهيرية المعاصرة. يشعر هذا الجندي السابق بالغربة والضياع في مجتمع مدني متسيّب وتنغصّ مسؤولية الاستقلال الفردي عليه حياته. يتطلع هذا الرجل إلى اليقين ورفقة السلاح وإلى التخلص من عبء المسؤولية، يتطلع إلى شيء يختلف كليّة عن الحياة المدنية التي تحيط به، ويجد كل ما يحلم به في الأخوة التي يتيحها محيط الحركات الجماهيرية الصاعدة.

(*) ما حصل في العراق بعد حل الجيش العراقي في أعقاب الغزو الأمريكي من انضمام جنوده إلى مختلف الميليشيات يؤكد صحة الملاحظة التي أبداها المؤلف (المترجم).